

الصينيون يقبلون على اللغة العربية وأدائها

الكاتبة والمترجمة تشن تشنغ: الترجمة ساهمت في تحديث الأدب الصيني



حسن الزراني
كاتب مغربي

تشن تشنغ باحثة ومترجمة صينية. تشغل بالتدريس في جامعة الدراسات الدولية بكين، بالإضافة إلى توليها نيابة عمادة كلية الدراسات الشرق أوسطية بنفس الجامعة. وهي الكلية التي تضم قسم اللغة العربية الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى منتصف ستينات القرن الماضي، بالإضافة إلى قسم اللغات الفارسية والتركية والعبرية، ومركز الدراسات العربية، ومركز الدراسات الصينية العربية. حصلت على الدكتوراه في موضوع مثير يخص "الجملة العربية: معناها ومبناها" بكلية اللغات الأجنبية وأدائها بجامعة بكين. كما تولت تأسيس مكتب النيل للترجمة والدراسات بكين ومؤسسة منشورات أوتار دبي.

نشرت تشن تشنغ العديد من الأبحاث العلمية في مجالات اللغة والترجمة. أما أعمالها على صعيد الترجمة فتضم، على سبيل المثال، رواية "ثلاثية غرناطة" للروائية المصرية رضوى عاشور، ونصوص للروائي الصيني أ بي. تنتمي تشن تشنغ، وهي التي لم تقفل بعد الأربعين من عمرها، إلى الجيل الجديد من المترجمين الصينيين الذين اختاروا طريق القراءة العاشقة للثقافة العربية والإسلامية، بحثاً عن مناطق النور داخلها.

تعود تشن تشنغ في حديثها إلى بداية علاقتها باللغة العربية التي ترجع إلى أواخر تسعينات القرن الماضي. وهي العلاقة التي بدأت بالصدفة لتغير حياتها بالكامل. والذي حدث ببساطة هو أنها اختارت اللغة العربية كتخصص جامعي، بعد أن أثارها سحر الكلمة الواردة ضمن التخصصات الجامعية. ولأنها، كما تقر بذلك، تحب كل العوالم الجديدة التي تفضل اكتشافها وأن تتحدى نفسها بتجريب كل شيء جديد يمكن أن "تلقه" به، وإيضاً أن تحيا حياة من مزيج الألوان، فسيكون كل ذلك وراء اختيارها للغة العربية التي قد تضاهي اللغة الصينية، على الأقل من حيث الصعوبة.

وفي ما يخص أثر هذا الاختيار على مستوى حياتها، تنبه تشن تشنغ، في البداية إلى أنه بخلاف أولئك الذين يخطون حياتهم بعناية ودقة ويعرفون جيداً ماذا سيفعلونه ويحققونه في مختلف مراحل أعمارهم، فإنها اعتادت أن تعيش في معظم الأحيان، من دون جدول أعمال للحياة، مؤكدة أيضاً أن ما يقودها في هذه الحياة هو الرغبة في التعلم والتجربة والابتكار.

ربع قرن من محبة العربية

تقر تشن تشنغ بانها لم تكن تعي أثناء اختيارها للغة العربية بأهمية ذلك على مستوى حياتها. إذ بدأت بتعلم هذه اللغة المحببة والاستمتاع بها، دون أن تهجد نفسها بالبحث عن مسار لحياتها، وإن كانت ستصير في ما بعد أستاذة بجامعة الدراسات الدولية بكين، ثم نائبة عميد كلية الدراسات الشرق أوسطية بنفس الجامعة، وسيمنحها ذلك فرصة تقاسم المعرفة والتجارب مع الطلبة الشبان المقبلين، بحماس كبير، على التعرف على الثقافة العربية وعلى لغتها. ولعل ذلك ما يتيح لها أن تستمر في الدراسة والابتكار. وتقر تشن تشنغ تشنغ أنها لما تسترجم تفاصيل حياتها على مدى عقدين من حياتها المجاورة للغة العربية، تدرك أن ذلك الاختيار أدى بها إلى مالات لم تتوقعها أبداً. إذ كانت اللغة العربية وراء نسج ربع قرن من عمرها بنجاحاته وإخفاقاته الصغيرة، وبأفراحه وبأحزانه، ويبدو أنها ستواصل بنفس المنهج نسج ما يتبقى من عمرها، كما تؤكد.

ويغري الاقتراب من عوالم اللغة العربية تشن تشنغ باقتحام مجال الترجمة، حيث صدر لها عدد من الأعمال، من بينها "ثلاثية غرناطة" للروائية المصرية رضوى عاشور.

الترجمة نافذة للحوار

عن سؤال يخص ما يمكن أن تحمله ترجمة الأعمال الأدبية العربية للقارئ الصيني وللثقافة الصينية بشكل عام، ترى تشن تشنغ أن هذه الأعمال يمكن أن

تطلع القارئ على نوع جديد من الأدب، له خصوصياته المميزة وعوالمه النابعة من حضارته وثقافته، خاصة أن القراء الصينيين لا يعرفون الكثير عن الأدب العربي.

وتضيف تشن تشنغ أن ترجمة الأعمال الأدبية العربية تتيح فرصاً لإقامة حوار بين الثقافتين العربية والصينية، إذ أنها قد تزود الكاتب الصيني بالرؤى والمناهج والأفكار المختلفة لرصد العالم، وتوفر له نوافذ جديدة لتأمل الكون والذات، وبالمقابل، يمكن لذلك أن يشجع إمكانيات الحوار بين الكاتب الصيني والكاتب العرب. وتستحضر تشن تشنغ، في هذا السياق، نجاح ترجمات أعمال أونويس إلى اللغة الصينية، والتي لقيت إقبالا كبيرا لدى القراء الصينيين، مما خلق مساحة من الحوار مع عديد من الكتاب والشعراء الصينيين. كما ترى تشن تشنغ، في نفس الإطار دائماً، أن الترجمة، بما تمنحه من إمكانيات الاتصال قد تضي

اللتغتين، من حيث اللفظ والتعبير، وتشجع مبدعيهما على الابتكار والتطوير. وتقر تشن تشنغ أن من يتابع الأدب الصيني الحديث سيد أن الشكل اللغوي للأعمال الأدبية الصينية الحديثة يرتبط بالأسلوب التغريبي الذي سارت عليه الأدبيات المترجمة في العشرينيات من القرن الماضي. وهو ما يتجلى على سبيل المثال، كما تشير إلى ذلك، في ترجمة الأعمال الأدبية العربية؛ فالترجم الصيني المشهور الأكاديمي بسام شويوه قد أوجد العديد من الألفاظ الصينية الجديدة أثناء ترجمة الأعمال أونويس، والتي صارت تداول على اللسان.

الترجمة نافذة للحدائق

عن سؤال يخص درجات اهتمام المثقفين والقراء الصينيين بأعمال ترجمة الأعمال الأدبية، تقر تشن تشنغ بان هذه الأعمال قد ساهمت بشكل كبير في تكوين حدائق الأدب الصيني. وتضيف تشن تشنغ أنه "ليس من المعقول ألا تضع في اعتبارنا أعمال الترجمة الأدبية وتأثيراتها في الأدب الصيني الحديث حين ننظر إلى مجرى تطورات الأدب الصيني الحديث. ولكن يؤسفنا أن نرى أن الأدبيات المترجمة، منذ أمد ليس بغير، ظلت تنزوي في ركن تاريخ الأدب، كما يغيب استحضارها ضمن المؤلفات المنشورة حديثاً عن تاريخ

الأدب الصيني الحديث أو تاريخ الأدب الصيني في القرن العشرين. وبعبارة أخرى، ما زالت الأدبيات المترجمة مهمشة في الأوساط الأدبية الصينية".

وتبرر تشن تشنغ هذا الوضع بوجود نقص على مستوى فهم طبيعة الأدبيات المترجمة. وتواصل موضحة "إننا نهتم بعمل الترجمة والأدبيات المترجمة ونقدر جهود المترجمين، غير أن هذه الأعمال الأدبية المترجمة انطلقاً من اللغات الأجنبية لا تنتمي إلى الأدب الأصلي المحلي على كل حال، فباي معيار نقيم مستواها الأدبي الفني وإسهامها في تاريخ الأدب الصيني؟ كما أن عمل الترجمة الأدبية يختلف عن الإبداع الأدبي للكاتب اختلافاً جوهرياً، رغم أننا نعترف بكونه نوعاً من التمرد الإبداعي ونستوعب النشاط الإبداعي للمترجمين أثناء عملية الترجمة".

ويقتضي هذا الوضع، حسب تشن تشنغ، ما يخص طقوسها على مستوى الترجمة، تؤكد تشن تشنغ أنها تحرص على قراءة العمل الأدبي من الفه إلى يائه أكثر من مرة، لكي تتبين أسلوبه اللغوي. ويحدث لها أحياناً أن تبدأ ترجمة فصل أو فقرة قد تثيرها. وبعد الترجمة الأولية، تقرأ النصوص المترجمة مرات، وقد تحذف وتضيف وتعديل ما ترجمته، قبل أن تسلم النص إلى دار النشر.

تباين اتجاهات الترجمة

عن سؤال يخص وضعية الترجمة بين اللغتين العربية والصينية على مستوى الاتجاهين، تقر تشن تشنغ بان فترة القرن الحادي والعشرين عرفت ازدهاراً كبيراً قد لا يكون له مثيل على مستوى الترجمة العربية بالصين. وتحرص تشن تشنغ على هذه الحركة الراهنة في خاصيتين.

تتشخ، إعادة النظر في تمثل حضور الترجمة الأدبية. وهو ما بدأت تنتبه إليه الكثير من الأصوات الصادرة عن المثقفين الصينيين في السنوات الخمس الأخيرة والتي تطالب بإدراج الأدبيات المترجمة في النظام الأدبي.

وفي ما يخص المعايير التي تقودها إلى اختيار ما ترجمه، تشير تشن تشنغ إلى أنها قد درست الترجمة في إطار الماجستير، ثم اللسانيات في إطار الدكتوراه. وتتطلب طبيعة هذه الدراسات منها أن تقرأ الكثير من الأعمال الأدبية، بالإضافة إلى سيراتها خلال عملها على مستوى الترجمة. وتضيف "إذا قرأت عملاً أدبياً أعجبني كثيراً، فقد أحاول ترجمته لكي أطلع لحظات الاستمتاع به. أما الأعمال التي تم نشرها، فغالبا ما تعرضها دار النشر على الأقل أن ترجمها أم لا".

وفي ما يخص طقوسها على مستوى الترجمة، تؤكد تشن تشنغ أنها تحرص على قراءة العمل الأدبي من الفه إلى يائه أكثر من مرة، لكي تتبين أسلوبه اللغوي. ويحدث لها أحياناً أن تبدأ ترجمة فصل أو فقرة قد تثيرها. وبعد الترجمة الأولية، تقرأ النصوص المترجمة مرات، وقد تحذف وتضيف وتعديل ما ترجمته، قبل أن تسلم النص إلى دار النشر.

تباين اتجاهات الترجمة

عن سؤال يخص وضعية الترجمة بين اللغتين العربية والصينية على مستوى الاتجاهين، تقر تشن تشنغ بان فترة القرن الحادي والعشرين عرفت ازدهاراً كبيراً قد لا يكون له مثيل على مستوى الترجمة العربية بالصين. وتحرص تشن تشنغ على هذه الحركة الراهنة في خاصيتين.

تتجلى الأولى في تغيير أهداف الترجمة من الصينية إلى العربية. إذ كانت تخدم، في الماضي، السياسة الخارجية الصينية. أما الآن فقد صارت تهدف إلى التعريف بعوالم الصين الحقيقية في المجالات المختلفة ودفع التجسير الثقافي بين الشعبين الصيني والعربي. وتكمن الخاصية الثانية في تسجيل فائض على مستوى نشاط الترجمة لصالح اللغة الصينية، إذ إن إنتاج الترجمة من الصينية إلى العربية يتجاوز إنتاجها من العربية إلى الصينية. وتضيف تشن تشنغ أن المتابع لتاريخ

تشن تشنغ: الترجمة فرصة لصرف وقت أطول مع عمل أدب نجبه

للوحدة التركيبية، وذلك باعتبار أن المعنى يحدد المبني وأن المبني يشار به إلى المعنى.

ترجمة الأعمال الأدبية العربية تتيح فرصاً لإقامة حوار بين الثقافتين العربية والصينية

وتضيف تشن تشنغ "بما أن اللغة تأثيرها الخاص على الكلام، فإن عوامل الكلام، باختلاف مستوياته ونطاقه وغرضه وإشاراته وتركيبه، تتوحد في نظام اللغة إلى حد ما وتلازم مبنى مطابق لها، ويعد هذا الجامع بين المبني والمعنى وحدة تركيبية أيضاً".

وتستطرد تشن تشنغ مضيفة أن هذه الوحدات التركيبية تتفاعل مع بعضها البعض أثناء الإصطالات الكلامية، حيث إن الوحدة من المستوى الأعلى تفرض سيطرتها على الوحدة من المستوى الأدنى وتحدد هذه الأخيرة، في حين أن الوحدة من المستوى الأدنى يمكنها الانضمام إلى الوحدة من المستوى الأعلى، إذا ما انطبقت عليها الشروط المطلوبة، لتتفاعل معا وتدل على المعنى. وبذلك، كما تشير تشن تشنغ، فإن الجملة تركيبياً وحدة أساسية للكلام، تمثل تركيباً يجمع بين المعنى والمبنى. حيث مع وجود الكثير من العوامل التي تؤثر في الجملة، سواء على مستوى المعنى أو المبنى، ومنها ما هو داخل الجملة أو خارجها، وتشبه تشن تشنغ النظام الكلامي بالكاكنن الحي الذي تتأثر أعضاؤه ببعضها البعض، حيث إن أي عامل يتغير، يحدث ما يشبه "أثر الفراشة" على بناء الجملة.

وتذهب تشن تشنغ إلى أبعد من ذلك لتمنح تحليلها بعداً فلسفياً يتجاوز الجانب اللساني لتؤكد أنه يمكن أن ننظر إلى عالمنا كما لو أنه تركيب يجمع بين معناه ومبناه، وأن كل وجود هو بمثابة وحدة تركيبية ذات معنى ومبنى، حيث يمكن أن يتخيل كل واحد منا نفسه، في خضم هذا العالم المجسم، كأنه جملة. وتختم تشن تشنغ حديثها، بشكل يتماهى مع هذا المنطق "وجودي له معنى، وحياتي تسير بفعل مختلف العوامل الداخلية والدوافع الخارجية لكون أنا. التغيير التدريجي لجسدي، الأشخاص الذين صادفوني، التجارب التي عشتها، والإماكن التي أقمت فيها، كلها تشكل التفاصيل التي تقود حياتي".

الترجمة بالصين سيجد أن التيار الرئيسي في حركات الترجمة بالصين ظل يحكمه الاتجاه من اللغات الأجنبية إلى الصينية. أما الترجمة في الاتجاه المعاكس فقليلة جداً. وتشير تشن تشنغ إلى أن إقامة العلاقة الدبلوماسية بين الصين الجديدة والدول العربية، مع منتصف القرن العشرين، حتى بداية هذا القرن، كانت الترجمة من العربية إلى الصينية أكثر من الأعمال المترجمة من الصينية إلى العربية. وتستدرك تشن تشنغ لتشير إلى كون سنة 2011 قد سجلت منعطفاً فاصلاً، حيث إنه منذ هذا العام، ولأول مرة، تجاوزت أعمال الترجمة من الصينية إلى اللغات الأجنبية الأعمال المترجمة من اللغات الأجنبية إلى الصينية، وهو الأمر الذي يهيم أيضاً الترجمة العربية، بما يرمز إلى تحول الصين من سوق الترجمة المستوردة إلى سوق الترجمة المصدرة.

سوء فهم

في ما يخص، بشكل أعم، وضعية الحوار بين الثقافتين العربية والصينية، تؤكد تشن تشنغ أن الشعب الصيني يكن مشاعراً طيبة تجاه الشعب العربي ويتوق إلى معرفة عوالمه الثقافية والفكرية. وتستطرد قائلة "لكن لا يجب أن ننكر أن هناك سوء فهم للعالم العربي بين عدد ليس بقليل من الصينيين، نتيجة لتضيق الإعلام الغربي لصورة العرب. في هذا السياق صرنا في حاجة ماسة إلى زيادة المعرفة وإقامة الحوار الثقافي الفعال بيننا". وهو الأمر الذي يمكن أن يتم، كما تؤكد تشن تشنغ، سواء من خلال الجهود الحكومية والمؤسسية، أو من خلال الجهود الفردية التي قد تلعب دوراً حقيقياً والتي يجدر أن تأخذ حيزاً أكبر من الاهتمام.

الجملة العربية ككائن حي

قبل سنوات، كانت تشن تشنغ قد ناقشت بحثها لنيل الدكتوراه، حيث اختارت كموضوع لرسالتها "الجملة العربية: معناها ومبناها". وقد اعتمدت في ذلك على الكلام الملموس لتدرس قيود وتأثيرات العوامل الكلامية على الجملة العربية خلال العملية الكلامية، بدءاً من نشوء غرض الكلام، ووصولاً إلى الإتيان بمبنى الجملة المحسوس. وقد استفادت تشن تشنغ، كما تشير إلى ذلك، من تمثيلات قواعد التركيب وأفكار العالم النحوي المصري تمام حسان، لننظر إلى المعنى والمبنى كعنصرين متلازمين

